وتأمل قوله : « ربي » الذي نستشف منه صفاءً روحياً ليس له حدود ، نستشف ذلك من لفظ الرّب أوّلا .

فكثير هي الألفاظ التي يمكن أن يستعملها يعقوب في هذا الموضع ، ولكنه تعمد هذا اللفظ ، لما فيه من معنى رعاية الله تعالى الدائمة له منذ أن قدّر له أن يكون حتى اللحظة التي يخاطب فيها أبناءه .

وإن انتقاء يعقوب لهذا اللفظ بالذات من الأدلة التي لا تدخل تحت حصر على أن يعقوب عبد شكور لمولاه وخالقه .

كما نستشف الصفاء الروحي ثانياً من ضمير المتكلم في « ربي » .

وكأنه عليه السلام قد استشعر في نفسه اصطفاء الله تعالى له بالمِنَن التي لا تُحْصَى مما ليس لأبنائه الحضور نصيب منها ، لهذا ضَمَّنَ كلامه هذا الضمير الذي يدل في هذه الصورة على أن له ، بمنّ الله وفضله ؛ عند بارئه ، منزلة ليست لواحد من الحاضرين .

وإن هذه الجزئية على لسان يعقوب ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ لدرس بليغ لأبنائه بأن الغفور الرحيم هو الله عز وجل فقط ، ولا يمكن بحال ، أن يكون حظ يعقوب من السماح والرحمة شيئاً ، بالقياس إلى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الغفور الرحيم .

فإذا انتقلنا إلى المشهد الثالث في قصة يوسف ، الذي ظهر فيه يعقوب ، فإنه الذي خرج فيه يوسف خارج المدينة لاستقبال يعقوب وآله .

ويشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

ويفهم من هذا أن يوسف عليه السلام كان خارج البلدة ينتظر قدوم والديه وبقية أهله ، وأنه جمع بين بر الوالدين بمغادرته المدينة وانتظاره لهما

خارجها ، وبين هيبة الحاكم ، فكأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضربٍ أو بيت ثم دخلوا هم عليه في ذلك المضرب أو البيت .

وليس بخاف أن الإشارة إلى والدي يوسف تأتي صراحة في هذه الآية لأول مرة ، وقد سبقت الإشارة إليهما ضمناً في أول السورة حينما قصّ يوسف على والده رؤياه ، وقد فسّر الشمس بوالده والقمر بوالدته .

وقد يقول قائل: وأين دور والدة يوسف عليه السلام في الحزن عليه ، إذ جرت العادة بأن تتفوّق الوالدة على الوالد في هذا المضمار .

والجواب على هذا أننا نتبين في يعقوب عليه السلام أباً في الحنان لا كالآباء ؟

فنحن بصدد رجل قد خصه الله تعالى بأن وضع في قلبه من المحبـــة لأولاده الشيء الذي لا يكاد يتصوّر ؟ وبخاصة يوسف وأخوه .

وكذلك خصه بابتلائه في فلذتي كبده ، وأحب أبنائه إليه .

فإذا عرفنا أنه كان بين رؤيا يوسف ومسير إخوته إليه أربعون سنة(١) أدركنا أنها فترة على أقل التقديرات طويلة ، قضاها يعقوب حزيناً على يوسف ، ذلك الحزن الذي لم تزدْه الأيام إلا استفحالا حتى انتهى به إلى العمى .

وأين هي الوالدة التي يمكن أن تحزن على ولدها حزناً قريباً من حزن يعقوب في القوة وطول المدة ؟

إن والدة يوسف ، ونرجح أنها هي المقصودة بقوله تعالى : ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ وليس خالته ؛ يجب أن تكون قد حزنت عليه حزناً بعيد المدى .

وفرق ما بين الحزنين ، أن حزنها كان يسير باستمرار نحو الضعف بعكس حزن يعقوب .

---

١ ـ الكشاف ١٢٣/٢ وفي ظلال القرآن ١١/١٣ عشرون سنة .

بل ليس هناك ما يمنع ، أن يكون لها بدافع الإشفاق عليه ، رأي فيه . يوافق ما قيل بحقه كما جاء في الآية : ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ .

فإذا انتقلنا إلى المشهد الأخير الذي ظهر فيه يعقوب ، فهو الذي عبرت فيه رؤيا يوسف .

وقد تكلم يوسف عليه السلام في هذا المشهد منفرداً بعد أن دخل يعقوب وآله مدينة مصر ، قال تعالى : ﴿ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّا وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إنّ ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدُّنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ .

الفصل الثالث

شخصية يوسف عليه السلام

شخصية يوسف عليه السلام

حينما نتكلم عن شخصية يوسف عليه السلام ، آخر الشخصيات التي ستتناولها بالدراسة في قصة يوسف عليه السلام ، فإنه يجب أن يكون واضحاً في أذهاننا أننا بصدد الشخصية التي تعتبر المحور الذي تدور عليه الأحداث في القصة .

والشخصية الأولى المحركة لكل شخصيات القصة بلا استثناء بطريق مباشر وغير مباشر .

إن يوسف عليه السلام المحرك الأول لوالده يعقوب من أول القصة إلى آخرها .

والشيء نفسه يقال عن إخوته بلا استثناء .

وهو المحرك أيضاً للسيّارة .

وكذلك الحال بالنسبة لعزيز مصر وامرأته ، ولنسوة المدينة . وللذين بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ، وللساقي في السجن ، وينبغي أن يكون له دوره مع الخباز .

وهو المحرك الفعلي للملك الذي رأى الرؤيا التي عبرها يوسف فطلبه بناءً على ذلك .

وإن رفضه الخروج من السجن قبل ثبوت براءته السبب في حمل الملك على دراسة قضيته دراسة عادلة .

وثبتت براءته للملك الذي خاطب النسوة بما ثبت له من موقفهن : ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

وقد توّجت براءته بشهادة النسوة على أنفسهن ، وبناءً على ذلك طلبه الملك وكلّمه ، فرشّح يوسف نفسه لمنصب عزيز مصر الذي كان وقتها شاغراً .

ومرّت سبع سني الرّخاء ، تلتها سبع الشدة .

وإن خلق يوسف الكريم وسمعته الطيبة ، وحسن تصرفه في الميرة ، هو الذي جعل إخوته مع غيره يتجهون نحوه في كل مرة للميرة .

وهو الذي حمل يعقوب على السماح لأبنائه بأخذ أخيهم الأصغر معهم لكرمه من ناحية ، ولوضع البضاعة في رحال الإخوة الذين لا يستحلون حراماً .

وهو المحرك الفعلي للأحداث في رحلة الإخوة الثانية إلى مصر ، لأنه آوى إليه شقيقه ، وجعل الصواع في رحله ، وأوحى لفتيانه وللمؤذن بالبحث الجادّ عن الصّواع .

وبسؤال الإخوة عن نوع الحكم الذي يرتضون في حقّ السارق ، اختاروا الاسترقاق الذي تقضي به ملتهم ، وليس تغريم السارق ضعف ما سرق ، كما يقضي بذلك الحكم الوضعي المصري .

ووجد الإخوة أنفسهم في ورطة ، إذ استخرج الصواع من رحل أخيهم الأصغر .

ورفض العزيز طلبهم بأخذ واحد منهم مكان أخيهم ، فقرر الأخ الأكبر بناءً على ذلك البقاء في مصر حتى يأذن له أبوه في العودة أو يحكم الله له وهو خير الحاكمين .

وعاد الإخوة التسعة إلى أبيهم ، وابيضت عينا يعقوب من الحزن ، خاصة على يوسف وطلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا فيتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا ييأسوا من رَوْحِ الله .

ومع أنه لا يعيّن لهم الوجهة التي يذهبون فيها إلا أنهم لا يخطر ببالهم أن يذهبوا إلا إلى عزيز مصر لأن الطعام عنده وأخاهم الأصغر ، وبالقرب منه الأخ الأكبر .

وإن لكرم العزيز وحسن خلقه سبباً في توجيه الإخوة إليه .

وتَصَرُّف الإخوة بعد كشف يوسف عن حقيقته ليس إلا تنفيذاً حرفياً لما أمرهم به .

وإن رحيل يعقوب وآله إلى مصر ليس إلا نزولا على رغبته .

حتى إذا كان المشهد الأخير في القصة اتّضح أنه تعبير فعليّ للرؤيا التي سبق أن رآها يوسف وقصّها على أبيه .

وينفرد يوسف بالحديث في المشهد الأخير .

من هذا الاستعراض السريع يتضح مما سبق أن أشرنا إليه من كون شخصية يوسف المحرّك الأول لكل الأحداث في هذه القصة .

وسنحاول بإذنه تعالى تتبع هذه الشخصية الطيبة الطاهرة في مختلف الأطوار التي مرت بها .

نسأله تعالى العون والتوفيق .

في الإمكان أن نقسم حياة يوسف عليه السلام ، التي تعرضت لها السّورة إلى ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة الغلام المحبوب من والده ذي النفس الصافية المشرقة .

وتنتهي بوضع إخوته العشرة لأبيه له في غيابة الجب .

الثانية : مرحلة اختيار الله تعالى له بالابتلاء ، منذ وضع إخوته له في غيابة الجبّ ، حتى ثبوت براءته وخروجه من السجن .

وهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين : الأول في بيت العزيز والثاني في السجن الذي زُجّ به فيه ظلماً .

الثالثة : مرحلة اختبار الله تعالى له بالنّعماء ، بتعيين ملك مصر له في منصب العزيز ، الذي كان آنذاك شاغراً ، حتى اجتماع شمل آل يعقوب به في مصر وتعبير رؤياه .

المرحلة الاولى

يوسف الغلام المحبوب من والده ذو النفس الصافية المشرقة

قال تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ، قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم ﴾ .

إن الجوّ الذي يدور فيه الحوار بين يوسف ويعقوب ودّي للغاية .

كيف لا ونحن بصدد نبي الله يعقوب ، الذي لا نكاد نعرف أباً نظيراً له في حبّ أبنائه .

فكيف به وهو يخاطب أحب أبنائه إليه قاطبة ؟

وإن الغلام يوسف يضمّن حديثه قوله : ﴿ يا أبت ﴾ الذي كان بإمكانه أن يستغني عنه ، ولكنّ الودّ والجوّ الروحي لم يكونا ليسمحا بذلك .

وإن الشيء نفسه يقال عن قول يعقوب : ﴿ يا بنيّ ﴾ فإن الأب الحنون ليتقدم ابنه في هذا المضمار ، إذ يجيء بالابن في صيغة تصغير التمليح الذي له دور بالإضافة إلى غيره من الشواهد ، على أن يوسف غلام صغير السن حقّاً .

وواضح أن يوسف يقصّ على والده ما رأى في المنام وليس في اليقظة بطبيعة الحال ، خاصة وقد جاء على لسان يعقوب خطاباً له ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

ومع أن قصّ يوسف للرؤيا موجز ، إلا أنه القمة في البلاغة والدّلالة على أننا بصدد نفس الغاية في الصفاء والإشراق الروحي .

إننا أولا إزاء « إنّ » التي تفيد التوكيد ، وهذا دليل على تأكد يوسف الغلام الصغير من صحة ما يقول عن رؤياه ودقّته .

وتأمل الفعل « رأى » الذي جاء في صيغة الماضي ، بينما جاء الفعل في صيغة المضارع « أرى » ثلاث مرات في مناسبتين أخريين مماثلتين لهذه المناسبة . وذلك على لسان الساقي والخباز والملك الّذين قص كلّ منهم رؤياه.

وليس لذلك من تعليل في اعتقادي ، والله أعلم ، سوى أن الغلام الصغير يوسف ، ذا النفس البريئة المشرقة يريد أن يقص في براءة الرؤيا التي رأى، دون أن يكون منه بطبعه شيء من اهتمام لما تدل عليه أو يترتب عليها.

لهذا جاء الفعل في صيغة الماضي الذي يشعرنا بأن كلّ شيء عن الرؤيا ينتهي بقصّها على والده .

أما فيما يتصل بالساقي والخباز والملك فإن الأمر يختلف ، فهم بحكم السن والتجربة مهيؤون بطبعهم للتمثل الدائم للرؤيا ، حريصون على تعبيرها ، لهذا جاء الفعل « أرى » مرات ثلاثاً كما ذكرنا ، وليس الفعل « رأى » الذي انفرد باستعماله الغلام البريء يوسف . والله أعلم .

وفوق ذلك نتبين هذا الإشراق الروحيّ والصفاء في موضعين آخرين من هذه الآية :

الأول من قول يوسف: « أحد عشر كوكباً » لقد حدد العدد بهذا الرقم ، وما أسهل مثلا ذكره وتذكره للشمس والقمر ، باعتبار أنهما مفردان من

نوعين مختلفين! ولكن ما أصعب أن يكون عدد الكواكب كثيراً ! وما أصعب تحديد العدد بأنه أحد عشر ! وليس أكثر بواحد مثلا أو أقل. ذلك العدد الذي يوافق عدد إخوة يوسف .

إننا بصدد نفس بلغت الغاية التي ليس وراءها غاية في الصفاء والطهر والنقاء ، ومن هنا تسنى أن تعد الكواكب الساجدة واحدة واحدة ، وأتت في النهاية بالرقم على وجه الدقة .

والموضع الثاني من الآية الذي نتبين فيه ذلك هو قوله: « لي » مما جاء على لسانه « لي ساجدين » إن هذا الغلام حينما يتبين أن الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ساجدة له سجود العقلاء فهذا دليل على أن الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً كانت من يوسف بالذات في وضع معين ، جعله يوقن أنه هو المقصود بالسجود .

وهذا اليقين من الأدلة على أننا بصدد نفس مشرقة وروح صافية .

وسبحان القادر على كل شيء ، الذي جمع ليوسف في رؤياه الشمس والقمر من ناحية ، والشمس والكواكب من ناحية أخرى .

والذي يفهم من السياق أن القمر كان في ليلة البدر ، والمعروف أنهما في ليلة النصف لا يجتمعان ، وإنما سمي البدر بدراً لأنه تلك الليلة يبادر الشمس بالطلوع ، بمعنى أنه يحاول أن يسبقها قبل غروبها .

وإن الآية في اجتماع الشمس والكواكب أقرب تناولا وأشد وضوحاً .

فالمعروف أن الشمس حينما تطلع لا يبقى في السماء كوكب واحد .

وقديماً قال النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب(١)

١ – مختار الشعر الجاهلي ١/ ١٧٥

وحينما نتبيّن في هذه السورة عَلاقة بين رؤيا كل من الساقي والخباز والملك ، وبين الواقع المحسوس .

فالساقي يرى نفسه يعصر خمراً ، وللخمر عَلاقة بعمله .

والخبّاز يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، وللخبز عَلاقة بعمله .

والملك يرى سبع بقرات سِمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، ولذلك كله عَلاقة بأرض مصر الزراعية التي يحكمها ، فإن في إمكاننا أن نتبين هذه العلاقة في رؤيا يوسف .

فبالإضافة إلى أنها تدلّ على أننا بصدد نفس يوسف الصافية المشرقة فإنها تدلنا بالتالي على الصفاء الغالب على سماء تلك المنطقة التي عاش فيها يوسف آنذاك ورأى فيها رؤياه .

ومع أن يوسف غلام صغير السن حقّاً ، ويقص هذه الرؤيا العجيبة على والده نبي الله يعقوب ، فإن هذا الوالد يأخذ هذه الرؤيا قضيّة مسلّمة ، ويستنتج منها استنتاجات بعيدة الغور عميقة المغزى ، ويبني عليها أحكاماً .

فبعد أن نهى ابنه عن قصّ هذه الرؤيا على إخوته خوف حسدهم له بكيد من الشيطان ، وهذا في حد ذاته دليل على اقتناع يعقوب بأن رؤيا ابنه حقّ ، يجيء على لسانه قوله تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم ﴾ .

فعلام يدل كل ذلك خاصة وأن هذا موقف يعقوب عليه السلام ، الذي كان آنذاك بالفعل نبياً ؟ .

والجواب عن ذلك هو أن نبي الله يعقوب ، قبل أن يقص يوسف عليه رؤياه ، كان يتوسم من هذا الابن الخير كل الخير ، وليس هناك من درجة

يتمناها لابنه الحبيب أعلى من درجة النبوة ، خاصة وأنه لم يتبين أي شيء من الدلائل في واحد من أبنائه العشرة الذين يكبرون يوسف أو الابن الأصغر.

وحينما قصّ يوسف عليه رؤياه كان ذلك الإثبات الذي طال انتظار يعقوب له ، فلم يكن ذلك غريباً على يعقوب ولا مناجئاً له ، وهو الذي كان ينظر بنور الله عز وجل .

وإن يعقوب نبي الله ، حينما يقبل رؤيا يوسف الغلام الصغير حقاً ، برضا وارتياح ، ويستنتج منها استنتاجات ويبني عليها أحكاماً ، فذلك دليل أكيد على أن يوسف قد حباه ربه بهذه المِنّة ، ورفعه تلك الدرجة العالية الرفيعة ، وقد جعلت يعقوب يوقن بأن ابنه الحبيب يوسف آخذ طريقه إلى درجة النبوة التي اصطفى الله تعالى يعقوب نفسه بها .

والحقيقة أننا حينما نتأمل قول يعقوب عليه السلام ردّاً على يوسف ، فإننا نستطيع أن نقسمه إلى قسمين كل قسم يختص بآية .

وبتأمل القسم الأول ﴿ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ يتبين أنه يحلّق فوق الرؤيا مباشرة .

فيعقوب ينهي ابنه نهياً صريحاً عن قصّ رؤياه على إخوته مع ذكر السبب في ذلك النهي بوضوح تام . فإذا انتقلنا إلى آية القسم الثاني من كلام يعقوب فإنه يتبين من تأملها أنها تحلق في الأجواء البعيدة جداً من قاعدة الرؤيا .

إنها تتعلق بالاستنتاجات التي انتهى إليها يعقوب نبي الله ببصيرته النيرة من رؤيا يوسف ، وبالأحكام التي بناها على ذلك .

وبتأمل الجزئية الأولى من الآية ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ يتّضح الأفق البعيد جداً الذي حلّق فيه يعقوب . فمعنى هذه الجزئية والله أعلم ، ومثل

ذلك الاجتباء والاختيار والاصطفاء بتلك الرؤيا الصالحة الطيبة ، يصطفيك ربك بنعمه الظاهرة والباطنة . وكأنّ يعقوب عليه السلام يتخذ من الرؤيا قاعدة لاستنتاجاته وأحكامه .

وتأمل لفظة الرب من « ربك » بمعنى المنعم عليك ومربيك ومالكك ، التي يستعملها يعقوب السعيد بهذا النبأ ، القرير العين به . والمعروف أن لفظة الرب إنما تدور في قصة يوسف على الألسنة عادة حينما يكون الجو غاصاً بالرضا وتذكّر النعم وتمثلها(١) .

وتأمل ضمير المخاطب في القول على لسان يعقوب : « ربك » . فعلى الرغم من أن النعمة التي تحل بيوسف كأنها حلت بيعقوب ، وكان بإمكانه أن يقول : وكذلك يجتبيك ربي ، ولكن يعقوب يعلم يقيناً أن النعمة تخصّ بالدرجة الأولى ابنه ، لهذا جاء على لسانه : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ وإن الشيء نفسه يقال عن كل ضمير للمخاطب في هذه الآية .

فإذا انتقلنا إلى تأمل الجزئيـــة الثانية من الآية ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فإن في الإمكان أن نعقد ببساطة علاقة بينها وبين الرؤيا التي رأى يوسف ، وهي السبب في القول الذي يجيء الآن على لسان يعقوب .

والحقيقة أنه انطلاقاً من حقيقة حكمة الله تعالى في جعل معجزة كل رسول من جنس ما نبغت فيه أمّته ، فقد كانت معجزة موسى عليه السلام تحدياً لقومه الماهرين في السحر ، ومعجزة عيسى عليه السلام تحدياً لقومه البارعين في الطب ، ومعجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تحدياً لقومه المتفوقين في الفصاحة والبلاغة ، وانطلاقاً من جو الرؤى الذي يصادفنا في هذه السورة في أكثر من مجتمع وموضع ، فهناك رؤيا يوسف والسّاقي

---

١ ـ جاء على لسان يعقوب مثلا خطابا لأبنائه قوله تعالى : ﴿سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم﴾ وجاء على لسان يوسف : ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا﴾ .

والخبّاز والملك ، فإن في إمكاننا القول : إن المراد من هذه الجزئية على لسان يعقوب ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ ويعلمك من تأويل الرؤى تحدياً لكل من في عصرك .

وقد كان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرّؤيا .

وفي هذه الحال نكون ما زلنا نراعي الأفق البعيد جداً من قاعدة الرؤيا ، الذي يحلّق فيه قول يعقوب ، وهو ما راعيناه في الجزئية الأولى من الآية .

وبذلك يكون المعنى الآخر الذي يفهم من هذه الجزئية الثانية ، وهو أن المراد ﴿ بتأويل الأحاديث ﴾ معالي كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها »(١) مرتبطاً بالجزئية الثالثة ﴿ ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾ .

إذ المراد بإتمام النعمة ، نعمة النبوة ، ومن موجباتها العلم بتأويل معالي كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، إلى آخر ما قيل .

وإن هذه الجزئية الأخيرة التعقيبية ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ لتدلّ كما هو واضح على علم الله تعالى الذي لا يحدّ ، وحكمته التي تتسّم بها كل أعماله جل وعلا .

وإن اجتباء يوسف وتعليمه من تأويل الأحاديث وإتمام النعمة عليه ، يخضع كل ذلك لعلمه تعالى وحكمته .

والمسألة المهمّة التي نود التنويه بها من المشهد السابق ، وهذا الحوار بين يوسف وأبيه ، هي أن الكلام الذي صدر من يعقوب في حقّ ابنه يوسف قد رفع من شأن هذا الابن عالياً حتى لنكاد نشعر بأن منزلته ليست بعيدة

---

١ ـ الكشاف ١٢٣/٢ .

جداً من منزلة والده نبيّ الله يعقوب وبالتالي فإن يعقوب ويوسف يشكلان منزلة ليست لواحد من أبناء يعقوب الأحد عشر ، الذين أشارت إليهم الرؤيا.

والحقيقة أن هذه ليست المرة الوحيدة التي يبدو فيها يوسف ويعقوب في منزلة واحدة .

بل إننا كلما تقدمنا في القصة أخذت هذه الحقيقة تتبلور .

حتى إذا كانت رحلة الإخوة الثالثة إلى مصر ، وتم تعرف الإخوة على حقيقة شخصية يوسف ، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه ، فإنه يتضح وقتها حينما تفصل العير ويجد يعقوب ريح يوسف أنهما من درجة عالية رفيعة واحدة فعلا .

وهي الدرجة التي كدنا نفهمها بل فهمناها بالفعل من المشهد الأول في القصة .

وفرق بين المشهدين أن يوسف في أولهما نبيّ بالقوّة ، وفي ثانيهما كأبيه نبيّ بالفعل .

ويبدو يوسف الغلام الصغير البريء في المشاهد التالية حتى شراء عزيز مصر له . فعلى الرغم من أن أباه ينهاه عن قصّ رؤياه على إخوته ، وكأنه يحذره بصفة عامة من حسدهم له ، إلا أننا نجد يوسف هو الغلام البريء دائماً.

حقّاً إنه لم يقصص رؤياه على إخوته تنفيذاً لنصيحة والده ، إلا أننا لا نجد له رأياً تجاه طلب إخوته أخذه معهم غداً كي يرتعوا ويلعبوا ؛ على الرغم من حرص يعقوب على عدم تلبية طلبهم أوّلا ، وعلى الرغم من قبوله لطلبهم على مَضَض .

بل لعل يوسف كان حريصاً على أن تتم موافقة يعقوب كي يستمتع للمرة الأولى مع إخوته بالنزهة واللعب ، ولعله أيضاً كان ينتظر تلك الليلة ظهور فجر اليوم التالي على أحر من الجمر .

ومن يدري ؟ ربما كان طول ليله ليس أقل من طول ليلهم ، وحين لاحت تباشير الفجر ، كان شعوره فرحاً كله ، بينما كان شعور إخوته مزيجاً من الرجاء والخوف ، من الفرح والشّقاء .

وبعد أن تم للإخوة أخذ يوسف معهم واستقر رأيهم على وضعه في غيابة الجب ، لا يبدو أن يوسف أحس بشيء مما بيّته الإخوة .

بل لعله لم يفطن إلى ما أريد به إلا بعد أن تركه الإخوة في غيابة الجب

ولعلهم تركوه بِرُمّتِه ، الذي ربط طرف منه في جزء من يوسف أو لعله أمسك به ، بينما أمسك بعض من الإخوة بالطرف الثاني ، كي يصل يوسف إلى غيابة الجب سالماً ، بحيلة أن يملأ لهم ماءً .

وبعد ذهاب الإخوة حتى مجيء وارد السيارة الذي أدلى دلوه فوقعت عينه على يوسف فصاح بملء فيه : ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾ لم يستطع يوسف مغادرة الجب الذي لا يبدو أنه كان عميقاً لأنه استطاع أن يتنفس فيه دون صعوبة .

ولعله لم يخطر بباله أن يحاول الخروج ؛ وإنما كان موقفه سلبياً حتى يتبينه من أول نظرة الواردُ الذي أدلى دلوه .

ونستطيع أن نفهم أن الوارد لم يجد صعوبة في إخراج الغلام من الجبّ .

وسواء عرّفهم بحقيقة نفسه أم لم يعرّفهم ، فمن المؤكد أنه لن يستطيع أن يقوم بأيّ تصرف من جانبه كي يعود إلى والده وأهله .

وإذا كان عاجزاً عن أي عمل مع الوارد المفرد ، فمن باب أولى أن يكونَ أكثر عجزاً مع مجموعة السّيّارة .

وبما أن السيارة مجموعة من التجار يسعون وراء الكسب المادي بطبعهم ، ويخافون أن يسألوا في كل وقت عن مصدر ذلك الغلام ، لذلك قرروا التخلص منه ببيعه في أول سوق تصادفهم بأي ثمن .

لأن هذا الثمن مهما كان زهيداً فكله مكسب لأنهم لم يدفعوا فيه شيئاً .

وبما أن مصر وجهتهم ، وأول سوق تصادفهم فيها ، لذلك قرروا بيعه هناك ، جرياً على عادة العصر الذي يتعامل بالتكسّب عن طريق الرقيق .

وبعد أن تم بيع يوسف وشراء عزيز مصر له ، تحوّل يوسف من الغلام الحر المحبوب من والده حباً جماً إلى الغلام المحبوب من عزيز مصر حباً أبوياً .

وبذلك تبدأ مرحلة جديدة ذات حلقات مختلفة في حياة يوسف عليه السلام .

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الجديدة، نود أن نتأمل ملياً قوله تعالى : ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون هناك إجماع من هؤلاء الإخوة العشرة وفيهم الأخ الأكبر على جعل يوسف في غيابة الجب .

ونود الوقوف عند الواو من قوله تعالى : ﴿ وأوحينا ﴾ فلو كان الإيحاء في اللحظة التي أجمعوا فيها على جعل يوسف في غيابة الجب لكان الكلام بدون الواو .

فدل مجيء الواو على أن هناك كلاماً محذوفاً مفاده أنهم ترجموا الإجماع فعلا وتركوا يوسف وحيداً .

ولكن الله تعالى كان مع يوسف فآنسه تعالى وبدد وحشته وأوحى إليه بأنه سينبّيء هؤلاء الإخوة بأمرهم هذا مستقبلا . ولم يشعر الإخوة بهذا الإيحاء اللطيف من اللطيف الخبير لهذا الغلام البريء .

فما معنى هذا الإيحاء في هذه اللحظة الحرجة بالذات ؟

معنى هذا أن هناك خطين ، سار الإخوة الغاوون في أحدهما ، وسار يوسف الغلام المحسن في ثانيهما .

وسيفضي الخط الأول في النهاية بالإخوة إلى القول : ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ .

بينما يفضي الخط الثاني بيوسف بعد المعاناة التي كابدها في رضا الله عز وجل إلى النبوّة التي اصطفاه بها أرحم الراحمين .

ومعنى أن يكون الإيحاء في تلك اللحظة العصيبة بالذات ؟

معناه أن الله تعالى دائماً مع عبده المصطفى يوسف ، وأنه وإن كان غلاماً صغيراً واحداً ، إلا أنه كثير بالله عز وجل .

وأن الإخوة وإن كانوا كثيرين في العدد ، إلا أنهم في الحقيقة قليلون ، لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا أداة طيعة للشيطان الرجيم عليه لعنة الله .

ومعنى هذا أن الله تعالى سيكون مع عبده المصطفى يوسف دائماً ، حينما تبلغ كل شدّة ذروتها .

وأن يوسف سيُصْطَفَى بإتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب بالنبوة دون إخوته .

وأن هؤلاء الإخوة وإن أرادوا الشر بيوسف إلا أن الله تعالى أراد الخير في النهاية له .

وأن الإنسان لا يصيبه إلا ما كتبه الله تعالى له أو عليه .

وأن الناس جميعاً لو أرادوا إنساناً بخير أو شرّ لم يرده الله تعالى له فإن ذلك لن يكون ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

والآن حان الانتقال إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية

مرحلة اختبار الله ليوسف بالابتلاء :

هذه المرحلة ذات شقين :

الشق الأول : في بيت عزيز مصر .

الشق الثاني : في السجن .

فمع يوسف المملوك المحسن .

في بيت العـزيز :

قال تعالى،﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يشتري عزيز مصر الرجل الطيب القلب ، النافذ البصيرة ، الراجح الفكر ، الغلام يوسف الزهيد الثمن ، الذي كان في مقدور كل واحد أن يشتريه .

ويأمر العزيز زوجته ، أحب الناس إليه وأوثقهم عنده بأن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً .

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن تبدّل خوف يوسف في الجب أمناً في بيت العزيز ووحشته أنساً ، وجوعه شبعاً وريّاً .

وإنّ منّ الله تعالى وفضله على يوسف يتخطى مجرد التعويض المادّي إلى التصريح بأنه تعالى سيصطفيه بعلم من عنده . هذا العلم هو القدرة على تأويل الأحاديث ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ .

وقد سبقت إشارة يعقوب عليه السلام إلى ذلك ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

وهكذا أراد الله تعالى الخير ليوسف .

وقد جاء التصريح بأولى درجات الاصطفاء . وهي القدرة الفائقة على تعبير الرؤي في قوله تعالى: ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ .

وإن هذا القول بالإضافة إلى قول يعقوب السابق خير مهيئين لنا للعلم يقيناً بقدرة يوسف على تلبية طلب الفتيين تعبير رؤياهما وطلب الملك تعبير رؤياه كذلك .

وهذه القدرة على تعبير الرؤى من رحمة الله تعالى بيوسف وهي فوق رحمة الله به بإنزاله في مصر منزلا كريماً .

ومن هنا جاء قوله تعالى في نهاية الآية : ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

لقد رأى يوسف رؤيا طيبة قصها على والده.ومعروف أن الرؤيا التي هذه حقيقتها جزء من أربعين أو ستة وأربعين جزءاً من النبوّة .

وحينما يخص الله تعالى يوسف بالقدرة على تعبير الرؤى فإنا نتبين من ذلك ارتباط هذه القدرة بدرجة تعلو على الرؤيا الطيبة في الطريق إلى أعلى الدرجات ، درجة النبوة الفعلية ، المرحلة الثانية في حياة يوسف عليه السلام .

قال تعالى: ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين﴾.

هذه الآية نعتقد أنها قد طوت فترة طيبة من عمر يوسف وقفزتها إلى الفترة التي بلغ فيها أشده . وهي فترة تقع عادة بين العشرين والثلاثين(١) .

ولعل محنته مع امرأة العزيز وقعت حينما بلغ الخامسة والعشرين .

---

١ ـ في ظلال القرآن ٩٩/١٢

فإذا عرفنا أن يوسف حينما اشتراه العزيز كان غلاماً ، وهو لفظ يطلق عادة على من هو في حدود الرابعة عشرة ، لا يتخطاها بحال ، عرفنا أن هناك فترة زمنية طويلة قضاها يوسف الذي كان آنذاك مملوكاً في بيت العزيز .

وهي فترة زمنية يجب أن يكون لها طابعان :

الطابع الأول : حينما كان يوسف ما زال غلاماً ، ونعتقد أن هذه الفترة التي لم تكن طويلة ، بالقياس إلى الأخرى ، قد مرت هيّنة ليّنة .

ويكفي أنه كان في منزل من يلقب الآن برئيس الوزراء ، كي نعرف أنه كان الغاية في النّعيم ، في ظل العزيز الرجل الطيب القلب الرحيم .

والطابع الثاني : حينما بلغ يوسف عليه السلام مبلغ الرجال . ونستطيع أن نفهم أنه عليه السلام ، كان في قبضه على دينه كالقابض على الجمر ، في ذلك البيت المترف ، في ذلك المجتمع الذي أقل ما يقال فيه إنه غير دينيّ .

وإن هذه الفترة التي تمتد حتى يبلغ يوسف أشده ، يجب بناءً على ذلك أن تكون طويلة طولا بيّناً ، وأن تمتد على أقل تقدير عشر سنوات قضاها يوسف في المكابدة والجهاد النفسي ، وقد بلغ الجهاد قمته في محنته مع امرأة العزيز .

وفي سبيل تبيين طبيعة هذه الفترة التي تلت بلوغه مبلغ الرجال ، وسبقت محنته مع امرأة العزيز ، نود تأمل لفظ المحسنين في قوله تعالى : ﴿ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين﴾ .

فما معنى هذا اللفظ الذي ليوسف عليه السلام منه نصيب موفور ، والذي استحق بسببه أن يؤتيه الله حكماً وعلماً ؟ .

إن معنى هذا اللفظ يجيء على لسان يوسف ، خطاباً لإخوته في قوله تعالى: ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبرْ فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

إذن فقد كان يوسف القمّة في التقوى والصبر بعون الله وتوفيقه ، في الفترة التي تعتبر من أكثر فترات العمر احتمال انزلاق وتردٍّ في مهاوي الرّذيلة خاصة في ذلك المكان المترف وفي المجتمع غير الدينيّ .

وباختصار ، نستطيع أن نفهم الإغراء الذي كان يتعرّض له الفتى يوسف ، الذي أُوتيَ شطر الحسن ، والذي كان أجمل من القمر ليلة البدر .

ونستطيع أن نتصوّر شيئاً من المعاناة التي ظلّ يكابدها في القبض على دينه لعدة سنوات مرّت بِطاء قبل أن تتوّج بالمحنة الكبرى مع امرأة العزيز !

والحقيقة أنه عليه السلام في ذلك المجتمع كان أشبه ما يكون بمصباح في ظلام ذلك المجتمع الدّامس .

وهنا يجب أن نشيد بِمَنّ الله وفضله على عبده يوسف ، الذي دبّره قبل أن يبتليه ، فنقول :

لقد شاءت إرادته تعالى ألّا يتمّ لإخوة يوسف التخلّص منه بإلقائه في غيابة الجبّ إلا في السن التي تسلح فيها بسلاح الإيمان الذي اكتسبه وارتوت منه عروقه في كنف والده نبيّ الله يعقوب عليه السلام ، ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وقد رعت العناية الإلهية يوسف في كل مرحلة من مراحل حياته ، وكان دائماً المصباح الذي ينير الطريق للسالكين ، وكان تمامُ النعمة عليه باصطفاء الله تعالى له بالنّبوّة .

وإن يعقوب نبيّ الله ليلقي علينا نحن المسلمين درساً في وجوب تنشئة أبنائنا تنشئة دينية ، فإنها السلاح النافذ دائماً ، والذي لا يزداد مع كرّ الليالي والأيام إلا قوة وجدّة .

وننتقل الآن إلى تأمل الآية التي تمثل هذه المرحلة ، قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

إن جملة « بلغ » هنا تدل كما سبق أن أشرنا ، على أن يوسف بعد فترة زمنية تميل إلى الطول قد بلغ أشدّه .

وهذه الفترة الزمنية قد فُهمتْ ضمناً من هذا البلوغ ومن الحكمة والعلم اللذين آتاهما الله تعالى يوسف جزاء إحسانه وتقواه وصبره .

وواضح أن هذا الإيتاء تكرُّمٌ من أحكم الحاكمين على عبده يوسف جزاء إحسانه .

فما المراد بالحكم ؟

إنه النظرة الصائبة للأمور والتقدير الصحيح للمواقف .

وما المراد بالعلم ؟

إنه العلم اللدنّي الذي اصطفى الله تعالى به يوسف .

وإن في إمكاننا أن نلمح في سهولة ويسر من هذه الآية الدرجة العالية الرفيعة الجديدة التي رَفَعَ الله تعالى إليها يوسف .

فقد آتاه في هذه السنّ حكماً وعلماً .

وفي إمكاننا أن نتبين الدرجات التي ارتفع فيها يوسف حتى الآن .

فهناك الرؤيا الطيبة أوّلا ، والعلم اللدني بتأويل الأحاديث ثانياً ، وهنا الحكم والعلم جزاء إحسانه .

وهكذا يتضح أنّه كلّما تقدم بيوسف العمر ، اصطفاه أرحم الراحمين برحمته جزاء إحسانه .

وإذن نستطيع أن نقول : إن شخصية يوسف تسير حثيثاً حيث الدرجة الرفيعة التي تنتظره ، درجة النبوة .

والآن إلى المشهد التالي :

قال تعالى: ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ،

ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ، واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجنَ أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفسي ﴾ .

ونودّ أن نتأمل جملة راود أولا من قوله تعالى:﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ ، التي تدل على المجهود البعيد المدى الذي بذلته هذه المرأة في سبيل تحقيق غرضها .

وكانت الظروف مسعفة لها كي تكون مراودتها ليوسف مستمرّة في كل الصور الممكنة .

فقد كان يوسف بالضرورة في بيتها لأنه مملوك لسيدها ، فلم يكن بإمكانه بعون الله تعالى إلا أن يستعصم .

أما أن يغادر المنزل ، وأما أن يبتعد عنها بحال من الأحوال ، فإن ذلك لم يكن في مقدوره مطلقاً .

وإن الشيء الذي نودّ التنبيه إليه ، هو أن هذه المراودة لم تكن الأولى من امرأة العزيز ، وإن كان يبدو أنها قد اتخذت الآن ثوب الصراحة ، وبالتالي يجب أن تكون قد سبقت هذه الصراحة تصريحات وتلميحات .

كما نود التنبيه أيضاً إلى أن امرأة العزيز لم تنفرد بالمراودة ، فقد شاركها فيها أخريات .

فهذا هو الذي ينتظر في مثل هذا البيت المترف في ذلك المجتمع غير الديني .

وإن من الأدلة على ذلك قول الملك خطاباً لجماعة النسوة اللاتي يعتبرن صورة من الأخريات كما جاء في القرآن : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتنّ يوسف عن نفسه ﴾ .

وإن في الإمكان أن نقول : إن المحنة التي مرّ بها يوسف مع امرأة العزيز تعتبر القمة في المضمار وليست الوحيدة ، فقد سبقها من نوعها كثير ، وتلاها من نوعها كثير .

وما دمنا عرفنا أنه قد سبقت هذه المحنة الكبرى محن ، فمعنى هذا أن يوسف الذي صبر واتقى بعون الله وتوفيقه ، قد اكتسب شيئاً كبيراً من الرياضة والدربة والمران على مواقف مختلفة من جنس ذلك النوع .

حتى إذا كانت المحنة الحقيقية كان عنده شيء كبير من المناعة .

ولم يكن أرحم الرّاحمين ليبتلي عبده المخلص المحسن يوسف ، إلا بعد أن آتاه القدرة على اجتياز هذه المحنة بسلام .

والآن فلنعد إلى تمثل الآية مرّة أخرى لشيء في أنفسنا .

قال تعالى : ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون﴾ .

والشيء الذي في النفس يتركز في هذا السؤال : هل هذه الآية تتحدث عن محنة واحدة فقط ، أم أنها تتحدث عن أكثر من محنة ؟

وبعبارة أوضح هل هذه الجزئية ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ مرتبطة بما بعدها أم أنها منفصلة عنها ، وتمثل بالتالي محاولة سابقة ، تعتبر امتداداً لمحاولات سابقة من امرأة العزيز ومن سواها ، في تلك الفترة التي تمتد من بلوغ يوسف مبلغ الرجال حتى بلغ أشده ؟

أنا في حقيقة الأمر أميل إلى الرأي الثاني ، وهو أن هذه الجزئية ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ تشير إلى نوع صريح من المراودة ، في هذه المرحلة من عمر يوسف ، متميز عما سبقه .

وأن هذه المراودة من امرأة العزيز ، كما أنها متميزة عما سبقها من مراودات إذ تعتبر الأخيرة تطوراً طبيعياً لها ، كذلك ما تلاها ، يعتبر تطوراً طبيعياً صارخاً لها .

وهذا يعني أن قوله تعالى : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ يمثّل قمة الصراحة في موقف امرأة العزيز من يوسف ، وأنها هذه المرة قرنت الفعل بالقول ، فلم تكتف ، بالتلميح ، ولا بالكلام الصريح .

وها هي ذي تقوم بتغليق الأبواب كي تضمن عدم دخول من في الخارج .

وهنا يجيء على لسانها القول : « هيت لك » .

وليس وراء هذه الصراحة من القول والفعل صراحة .

وهنا يجيء عن يوسف قوله تعالى : ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وبتأملنا لهذا القول على لسان يوسف نستطيع أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام :

﴿ معاذ الله ﴾ و ﴿ إنه ربي أحسن مثواى ﴾ و ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وواضح أن القسم الأول يتعلق بالذات العلية ، فإن يوسف يستعيذ بالله العلّي القدير ، من أن يتورط فيما تدعوه إليه امرأة العزيز ، وإن موقفه هو الرفض التّامّ لهذا الطلب .

حتّى إذا تحولنا إلى القسم الثاني ﴿ إنه ربي أحسن مثواى ﴾ لمحنا نوعاً من شبه بين هذا القول على لسان يوسف والقول السابق على لسان العزيز ﴿ أكرمي مثواه ﴾ .

وإن هذا الشبه يدعونا إلى الظن بأن هذا القول على لسان العزيز لامرأته قد قيل أمام الغلام يوسف ، وها هو ذا الآن ، بعد هذه السنوات العديدة ، يستعمل لفظة المثوى التي سبق للعزيز أن استعملها .

وإن الاستعمال لهذه اللفظة يجعلنا نعتقد أن قول يوسف : « إنه ربي » معناه إنه سيدي يعني العزيز ، خاصّةً وأن يوسف نفسه يستعمل في مناسبة أخرى الرب بمعنى السيد .

فقد جاء على لسانه خطاباً للساقي ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ﴾ .

وجاء عنه قوله تعالى : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

وكذلك يستعمل القرآن الكريم في هذه السورة هذه اللفظة في المعنى نفسه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

فإذا اتّضح كلُّ هذا استطعنا أن نقول : إن يوسف ينتقل من استعاذته بالله تعالى إلى الحديث عن الشخص الذي أحسن إليه بمنّ الله وفضله .

وفي الإمكان أن نتبين اعتراف يوسف بإحسان العزيز إليه ، قبل تصريحه بالقول : ﴿ أحسن مثواى ﴾ وذلك من إطلاقه للفظة الرب بمعنى المنعم ، في الدلالة على إنعام العزيز ، وإيثاره لها على ما سواها .

وإن لضمير المتكلم في « ربي » دوراً آخر في الدلالة على اعتراف يوسف بالجميل، وشعوره بالامتنان . وإن هذا القول : ﴿ أحسن مثواى ﴾ يعتبر تبييناً وتوضيحاً لقوله : « ربي » .

ونود أن نعقد نوعاً من عَلاقة بين قول العزيز السابق خطاباً لزوجه: ﴿أكرمي مثواه ﴾ وقول يوسف الآن : ﴿ أحسن مثواى ﴾ ويتضح ذلك من مبالغة كل من العزيز ويوسف في الحرص على استعمال لفظ المثوى ، بمعنى مكان الثواء ، مبالغة من كل منهما في وصف الإكرام والإحسان .

فإن قصد العزيز ببساطة « أكرميه » .

وقصد يوسف « أحسن إليّ » .

وهذا دليل على إكبار يوسف لليد البيضاء التي أسداها إليه العزيز .

وفي الإمكان أن نتبيّن في قول يوسف هذا تقديرأمنه أبعد لإكرام العزيز له.

إن العزيز يجيء على لسانه جملة أكرم في خطابه لزوجه ﴿ أكرمي مثواه ﴾ بينما يجيء على لسان يوسف جملة « أحسن » في خطابه للزوجة نفسها ، ﴿ أحسن مثواى ﴾ .

إن العزيز قد جاء على لسانه أقصى ما يمكن أن يجيء على لسان من كان في مثل موقفه خاصة وأنه بحكم ظروفه وطبيعة عمله لا يستطيع أن يقوم بدور الإكرام وإنما يوكل ذلك إلى أحب الناس إليه، ومن يعتقد أن له عندها المنزلة نفسها .

أما فيما يتصل بيوسف ، فإنه إكباراً منه للإكرام الذي كان العزيز سبباً فيه لا يجد جملة أكرم . قادرة على التعبير عما يشعر به في أعماقه من امتنان للعزيز ، ومن ثم فهو يلجأ إلى جملة أخرى تعتبر أكثر قدرة على التعبير ، هذه الجملة هي « أحسن » التي نعتقد أن يوسف أخرجها من أعماق نفسه ، كرد فعل نفسي للإحسان إليه .

إن العزيز يستعمل جملة أكرم ، وهي تدل على الإكرام الذي سيصل من امرأته إلى يوسف .

أما يوسف فيستعمل جملة أحسن ، وهي تدل على امتنانه وإنزاله الإكرام منزلة أبعد وأعلى ، ألا وهي منزلة الإحسان ، فيا له من وفاء من يوسف عليه السلام ، في تلك اللحظة العصيبة .

وإن يوسف عليه السلام ، حينما يتضمن كلامه لفظة مثوى ، في هذا الظرف العصيب ، الذي تريد فيه المرأة الإساءة ليوسف ولزوجها الذي سبق أن تضمن كلامه لها لفظة مثوى ، فهذه براعة من يوسف ، المراد منها إيقاظ ضمير هذه المرأة السادرة في غيّها ، التي لم تحفظ وصية زوجها ، المصممة على خيانته بالغيب(١) .

وإذا كان يوسف تحوّل من هذه الجزئية « معاذ الله » المتعلقة بالذات العلية ، إلى هذه الجزئية « إنه ربي أحسن مثواى » المتعلقة في مجموعها بالعزيز ، فإنه يتحول الآن إلى نفسه في هذه الجزئية ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

---

١ ـ واضح أن استنتاجنا هذا مبنى على أن قول العزيز : ﴿أكرمي مثواه﴾ كان أمام الغلام يوسف بقصد أن يطيب خاطره ويطمئن نفسه . ولو فرض أن قول العزيز لزوجه لم يكن أمام الغلام . ففي هذه الحال يكون قول يوسف المتضمن لفظه المثوى الموافقة للفظه نفسها في قول العزيز ، من قبيل احساس يوسف العميق باحسان العزيز اليه . وفي ذلك تقريع لهذه المراة على سوء صنيعها، والحقيقة اننا الى الافتراض الأول أميل ، والله أعلم .

إن امرأة العزيز تطلب منه أن يرتكب الفحشاء .

وفي ذلك ظلم أيما ظلم لأوامر الله تعالى التي تنهى عن الزنى نهياً باتاً .

وظلم بيّن لنفسه ، إذ يسيء إليها أيما إساءة والواجب عليه أن يحسن .

وظلم للعزيز ولامرأته أيضاً .

إنه ظلم للعزيز لأن معنى تلبية طلب الزوجة مقابلة إحسان العزيز بالإساءة ، وائتمانه له على حرمه ، أغلى ما يملك بالخيانة .

وإنه ظلم لامرأة العزيز ، لأن معنى تلبية طلبها ، وحاش لله أن يتم شيء من ذلك ، كشف ما لا يحق كشفه إلا بالطريق المشروع . وكيف يكون هناك حقّ أساساً وإن المرأة لمتزوجة ! .

وإن يوسف عليه السلام ، ليلقي علينا نحن المسلمين شبابنا على وجه الخصوص درساً بليغاً في الوفاء والأمانة وحفظ الفرج .

وهذا الموقف الطاهر العف ، أثنى عليه القرآن الكريم في أكثر من موضع ،

قال تعالى في سورة المؤمنون (١) : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

وقال تعالى في سورة الفرقان(٢) : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مُستقراً ومُقاماً والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ،

---

١ ـ آيات ١ـ٧

٢ ـ آيات ٦٣ـ٧٠

يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلدْ فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

وقال تعالى في سورة الإسراء(١) : ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلا﴾ .

وقال تعالى في سورة النور(٢) : ﴿ الزّاني لا ينكح إلاّ زانيةً أو مشركةً والزّانية لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مُشرك ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين ﴾ .

وقال تعالى ثناء منه على مريم ابنة عمران في سورة التحريم(٣) : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ .

والحقيقة أنّ سورة يوسف ، عن طريق قص محنة يوسف مع امرأة العزيز وصرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء ، لأنه من عباد الله المحسنين المخلصين ، تنتهي إلى الغاية نفسها التي انتهت إليها آيات القرآن المتعددة في النهي عن ارتكاب جريمة الزنى صراحة .

ولكن سورة يوسف تصل إلى هذه الغاية في مجرى فريد لها .

إنّها تقص علينا المحنة التي مر بها الشاب المثالي يوسف مع امرأة العزيز واستعاذة هذا الشاب الصالح غير المتزوج بالله تعالى مما تدعوه إليه هذه المرأة ومراقبته لله تعالى في تلك الخلوة التي فرضت عليه فرضاً ، وإنقاذ الله تعالى في النهاية له ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾(٤) ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسرا ﴾ (٥) .

---

١ ـ آية ، ٣٢
٢ ـ آية ، ٣
٣ ـ آية ، ١٢
٤ ـ الطلاق ، من ايتى ٢،٢
٥ ـ الطلاق ، من آية ٤

إنه لنعم الدرس الذي يلقيه علينا الشاب الصالح يوسف الذي كان آنذاك مملوكاً وغير متزوج .

إنه لأسوةٌ حسنة لكلّ شاب مُسلم في كل زمان ومكان .

وإن إنقاذ الله تعالى لعبده المبتلي يوسف ، لدليلٌ من أقوى الأدلة على أن الله تعالى لن يتخلى مطلقاً عن عباده الصالحين ، وأنه لا يكون منه تعالى إلا الخير .

ما أجمل الدرس الذي يلقيه علينا نحن المسلمين نبيُّ اللهُ يوسف ! وما أحلى وقعه على كل نفس مؤمنة مطمئنة !

ولو أن كلّ شاب مُسلم اتّخذ يوسف الشاب المسلم لله رب العالمين مثالا يحتذى في هذه القضية التي نحن بصددها لتخلصت كل مجتمعاتنا الإسلامية من هذه الرذيلة ، ولأصبحت مجتمعات طيبة طاهرة عاطرة . وحينما يعف الرجال تعف النساء .

ونتحول الآن إلى الآية التالية :

قال تعالى: ﴿ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين﴾ .

ونود أولا تناول هذا القول من الآية : « ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وإن هاتين الجزئيتين من هذه الآية ، مما يتهيّب فطاحل العلماء الخوض فيه خوف الزلل ، وإنا لنسأله تعالى دائماً العون والتوفيق .

هناك بعض النقاط التي نود تبيينها بهذا الخصوص :

أولا : ليس بخاف موقفُ امرأة العزيز المريب من يوسف .

وليس بخاف موقف يوسف الخالي من كل شائبة .

ثانياً : لإحسان يوسف الدائم فقد كان الله تعالى معه في كل لحظة من لحظات حياته ، وبخاصة في أوقات الشدة .

فحينما أجمع الإخوة أمرهم أوحى الله تعالى إليه لينبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون قال تعالى : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

وحينما بلغت المحنة ذروتها مع امرأة العزيز أراه الله تعالى برهانه .

وحينما اتهمته الزوجة أمام زوجها قيّض الله تعالى له الشاهد الذي قضى ببراءته . وحينما قدّر عليه السجن ، قدر عليه ساعة دخوله السجن الخروج منه بإدخال الفتيين معه ، وكان الساقي الذي نجا منهما سبباً في خروج يوسف من السجن بعد تعبيره رؤيا الملك .

ثالثاً : لقد نَعَتَ الله تعالى عبده يوسف بأنه من المحسنين ، قال تعالى: ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حُكماً وعِلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

كما نعته تعالى بأنه من عباده المخلصين . قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

ونستطيع أن نقول باختصار : إن رحمة الله تعالى كانت في هذه المحنة مع يوسف عليه السلام ، بينما كانت امرأة العزيز منساقة وراء الهوى موكولة إليه .

وبعد هذه المقدمة الموجزة ننتقل إلى تأمُّل هاتين الجزئيتين معاً ، لأن هناك نوعاً من عَلاقة بينهما .

قال تعالى : ﴿ ولقد همّت به ، وهمّ بها لولا أن رأى بُرهان ربه ﴾ .

وواضح أن الجزئية الأولى القصيرة خاصة بامرأة العزيز ﴿ ولقد همّت به ﴾ وأنّ الجزئية الثانية التي تميل إلى الطول خاصة بيوسف عليه السلام ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ .

فما الذي يلمحه المتأمل لهاتين الجزئيتين ؟

إنّ أول ما يُلمح هو أن الجزئية الخاصة بامرأة العزيز تتضمّن اللام التي تفيد التوكيد ، وقد التي تُفيد التحقيق « لقد » بينما لا يوجد شيء من ذلك في الجزئية الخاصّة بيوسف عليه السلام .

فلنتأمّل معاً الجزئية الثانية ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى بُرهان ربه ﴾ فعلام يدل هذا؟

هذا يدلُّ على أن همّ يوسف عليه السّلام ، لا يمكن بحال أن يكون من نوع همّ امرأة العزيز .

وحاش لله أن يكون ليوسف المحسن ، ، عبد الله المخلص المرشّح للنبوة علاقة مِن همّ هذه المرأة المنساقة وراء الهوى ، التي كان همّها عملياً ، بدليل أنّها حاولت اللحاق به وهو مندفع حيثُ البابُ للفرار بدينه ، وأمسكت بقميصه وقدّته من دُبُر .

وما دام قد اتّضح أنّ هناك نوعين مختلفين من الهمّ ، وما دمنا نعرف أن حرف العطف (الواو) في مثل هذه الحال يرفع بطبعه الهمّ الثاني قريباً من مستوى الأول ، ولم يكن ذلك حقّاً بحال ، فإن أوّل ما نطالب به ونُلحّ في الطلب ، هو أننا أثناء التلاوة ينبغي أن نقف عند نهاية الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز ثم نستأنف التلاوة .

وبالتالي تكون التلاوة في هذه الصُّورة ﴿ ولقدْ همّت بهْ ، وهمّ بها لولا أن رأى بُرْهان ربه ﴾ .

وإن هناك لجمالا موسيقيّاً داخليّاً نكسبه من هذه الصورة من التّلاوة ، وذلك من الباء والهاء الساكنة في الموضعين ، إضافة إلى إحقاق الحق المعنوي .

ثم ماذا يلمح المتأملُ للجزئيتين مِن فرق ؟

إنه يلمح أنّ الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز تقف عند الهمّ ولا تتخطاه بينما يتبين أن الجزئية الثانية ، الخاصة بيوسف ، تتضمن هذه الزيادة ﴿ لولا أن رأى بُرهان ربه ﴾ .

فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن رحمة الله تعالى دائماً مع العبد المبتلى يوسف ، وأنه في اللحظة التي همّت فيها امرأة العزيز عملياً ، كان بُرهان الله عزّ وجل ، الذي لا نعرفه على وجه التحديد ، والذي نستطيع أن نقول عنه : إنّه أثر من آثار رحمة الله بيوسف ، يراه يوسف عليه السلام أمامه رأي العين .

وكان هذا البرهان من الله تعالى في اللحظة التي كان فيها الهمّ عملياً من امرأة العزيز ، وكاد يكون من يوسف ، المرشّح للنبوة ، ردٌّ فعل عنده ، ممثل في صورة همٍّ نفسي .

وإن الذي حال دون هذا الهم النفسيّ منه بُرهان الله تعالى الذي قضى على هذا الهم النفسي قبل أن يكون .

وإن الذي جعل السياق يجيء في هذه الصُّورة بالذات ﴿ ولقد همت به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ هو أن هذا السياق أفهم أن ليوسف فضلا له دوره في الوصول إلى النهاية الحميدة ، لا يكاد يقلّ عن البُرْهان الذي رآه(١) إضافة إلى ما يسمى بمراعاة النظير في البلاغة .

فلنعد الآن إلى تأمّل الجزئيتين معاً « ولقد همتْ به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » .

وبما أن برهان الله قد قضى على الهم النفسي ليوسف عليه السلام .

وبما أن الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز تتلى منفردة ، فإن الجزئية الخاصة بيوسف عليه السلام ينبغي أن تُتلى بشقّيها معاً ، وتكون تلاوة الجزئيتين بالتالي في هذه الصُّورة ﴿ ولقد همتْ به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ (٢) والله أعلم .

---

١ ـ لو كان السياق فى هذه الصورة مثلا ، ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها . لما تبينا له دورا ، وقد كان له عليه الصلاة والسلام في الوصول الى النهاية السعيدة دور كبير .

٢ ـ إنّ قلبى لا يرتاح لأى قراءة فى غير هذه الصورة ، والله أعلم .

فإذا انتقلنا إلى ما تبقى من الآية تبين أنه ينقسم إلى قسمين : ﴿ كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء ﴾ و ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

وبتأمل القسم الأول يتبين أن رب العزة لم يتخلّ ولم يكن ليتخلى عن عبده المبتلى يوسف .

وأن برهان ربه الذي رآه كان السّبب المباشر في صرف السوء والفحشاء عنه .

« والسُّوء هو الاستجابة النفسية للإغراء . والفحشاء هي الفعل الذي ينتهي إليه » (١) .

وبما أن الفحشاء ، بمعنى جريمة الزنى ، قد صرفها الله تعالى عن يوسف ، فقياساً على ذلك تكون الاستجابة النفسية للإغراء لم تكن أساساً وهو ما سبق أن أوضحنا .

وإنّ الشيء الذي نودّ توكيده هو أنّ يوسف عليه السلام كان الغاية في بُغض ما تقوم به امرأة العزيز تجاهه ، وبخاصة في هذه المحنة التي تُعتبر بالقياس إلى ما عداها قمة القمم .

وكان مقبلاً على الله تعالى بكلّه .

هذه التربة الطيبة قبلت غيث بُرْهان الله تعالى فأنبتت بإرادة الله تعالى صَرْفَ السوء والفحشاء .

وقد كانت الجزئية الأخيرة من الآية ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ خَيْرَ شاهد من الذي لا يخْفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، من ربّ العزّة ، على طهرِ قلب يوسف ونقاء سريرته وصفاء نيته .

واستجابة من يوسف لبرهان ربه الذي أراه إياه .

---

١ ـ في ظلال القرآن ١٠٣/١٢

وقد اتّجه دفاع يوسف في هذا القول عن نفسه خناجر تمزق هذه المرأة في كبرها الزائف وعزّها الآثمة وغرورها المخدوع .

براءة يوسف وموقف متطوّر للمراة :

تشاء إرادة الله تعالى ، الذي لم يكن ليتخلى عن عبده المخلص المبتلى يوسف ، أن يثبت صِدْق الفتى وزَيفُ المرأة عن طريق الشّاهد الحكيم .

قال تعالى: ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصُه قد من قُبل فَصَدَقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم﴾ .

لقد أوجدت إرادة الله تعالى الدليل على براءة يوسف قبل الاتّهام .

فقد قدّ قميصه من دُبر قبل أن يلفيا سيدها لدى الباب .

ويستمرّ الشاهد في القول كما جاء في القرآن الكريم ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

لقد وضع حد لهذه المسألة الآن ، ليس لأن يوسف هو البريء ، ولكن لأن المرأة هي المتّهمة !

هذه صورة من صور معالجة أمثال هذه الأمور ، في تلك المجتمعات غير الدينية ، عند تلك الطبقات التي تسمّى بالرّاقية ، ولكنّه في حقيقته رقيّ معكوس .

وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه العزيز ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميرا﴾ (١) .

وذاع في المدينة موقف المرأة من الفتى ، ولاكته ألسنة جماعة من النسوة ، فدعتهن المرأة كما هو معروف إلى وليمة ، وطلبت من الفتى أن يخرج عليهن ، وأكبرنه وقطّعن أيديهنّ .

---

١ ـ الاسراء ، ١٦

ولم يرفض يوسف الخروج ، لأنه لا يملك إلا أن يطيع فيما ليس فيه معصية لخالقه .

وبعد أن كسبت المرأة الجولة يجيء عنها قوله تعالى : ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين﴾ .

وواضح أنها تتحدث عن الفتى في فجور وكبر ، فهي تخيّره بين أن يفعل ما تأمره ، — ويلاحظ أن طلبها سابقاً أصبح أمراً الآن — وبين أن يُزَج به في السجن .

ومادام أن في الأمر تخييراً بين هذين الأمرين المرَّين فقدكان طبيعياً أن يختار يوسف عليه السلام السجن .

وقبل أن نتحوّل إلى القسم الثاني من مرحلة الاختبار بالابتلاء ، مع يوسف في السجن ، نودّ أن نجيب عن سؤال لم يلحّ علينا ، هذا السؤال هو : ما دام يوسف قد بلغ الآن أشده ، وكان الغاية في الصحة والقوة والعلم ، وعلى علم تام بمكان أبيه وآل يعقوب ، فهلا فكّر في التوجه إلى آل يعقوب ومغادرة مصر . ؟

والجواب عن ذلك أن إرادة الله تعالى لم تشأ ذلك ليوسف وإن لنا على ذلك دليلين :

الأول : هو أن مصر مكان تعبير رؤيا يوسف عليه السلام . وقد تمّ ذلك في نهاية القصة كما هو معروف .

والثاني : هو أننا نعتقد ، أن يوسف ، سواء نال حريته أم لم ينلها ، لم يكن يرغب أساساً في مغادرة مصر ! ليس للإكرام الذي خصّه به العزيز ، فإن إيذاء زوجته له أكبر ، ولكن لأن يوسف عليه السلام صاحب رسالة وحامل أمانة .

وحينما نتبيّن عما قريب في السجن أن يوسف كان يتحيّن كل فرصة للدعوة إلى دين الله ، فهذا ما فعله مع صاحبيه في السجن ، وأن المجتمع المصري آنذاك عامة في حاجة إلى يوسف كي يكون سبباً في إخراجه من الظلمات إلى النور أكثر من حاجة المجتمع الشّامي ، حيث يعقوب نبي الله وآله ، إذا تبين ذلك ، أدركنا السبب الذي من أجله آثر يوسف التّصدّي للصعاب والصّمود لها حتى يأذن الله بالفرج . والبقاء في مصر ابتغاء رضوان الله ، على الراحة والأهل والأوطان .

وإن هذا لدرس بليغ آخر يلقيه يوسف عليه السلام ، على كل حامل أمانة من أمة الإسلام .

وحينما نتأمّل ردّ يوسف عليه السلام على امرأة العزيز التي أرادت أن يفعل ماتأمره به ، قال تعالى : ﴿ قال ربّ السّجنُ أحبُّ إلي ممايدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ فإن أول ما يلاحظ ، هو أن تفضيل يوسف للسجن على ما يدعوه إليه النسوة ، إنما تم في ضوء تخيير امرأة العزيز له بين الأمرين المرّين . وإلا فقد كان عليه السلام يؤثر السلامة والعافية على هذين الأمرين معاً .

كما يلاحظ ميل يوسف الواضح لاستعمال لفظة الرّب وإيثاره لها على ما عداها لما تتضمنه من الإشعار بالاعتراف بإنعام المنعم .

وعموماً فإن هذه اللفظة ، بهذا المعنى تدور في هذه السورة على الألسنة في كثير من المناسبات للسبب نفسه .

وإن يوسف عليه السلام لا يجيء على لسانه مثلا « ربّ السجن أفضل عندي » مما يفهم منه أن الفارق بين فعل ما يُدْعى إليه وبين السجن ليس كبيراً ، إنما يجيء على لسانه : ﴿ ربّ السجن أحب إلي ممايدعونني إليه ﴾ .

فليس هناك مجال للمقارنة أساساً بين الأمرين .

ومع أن كل نفس حرة تبغض السجن على كل حال ، ومن باب أولى حينما تكون مظلومة ، وأن يوسف ليعتبر القمة في إباء الضيم أو أن يسام خسفاً ، إلا أن الأمر يختلف الآن اختلافاً بيّناً .

إنه ليس هناك مجال للترجيح أو المفاضلة ، ولكن هناك الرفض التّام لأحد الأمرين ، وبالتالي فهناك القبول التام بالضرورة لثاني الأمرين ، بل هناك الرضا ، لا بل هناك الحب (رب السجن أحبُّ إلي مما يدعونني إليه) .

وإن يوسف نبي الله المعصوم ، لا يتّكل على نفسه طرفة عين ، ولا يغتر بكونها على الصراط المستقيم لحظة من اللحظات ، وها هو ذا يعبر في صراحة عن ضعفه ويعلن عن عجزه (وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين) .

إنه ليسأل ربه مخلصاً أن يعينه على ما ابتلاه به ، وينقذه مما هو فيه ، ويصرف عنه كيد هؤلاء النسوة اللاتي يتعرضن له محاولات إغراءه بالتلميح والتصريح والأمر الواضح الصريح ، وإلا فإن ضعفه سيغلبه فيصبو إلى النسوة ، ويتجاوب معهنّ ويكون في النهاية ، وحاش لله أن يكون شيء من ذلك ، واحداً من الحمقى الطائشين الجاهلين .

وإن الله تعالى الذي هو أقرب إلى يوسف من حبل الوريد ، قد استجاب دعاءه فصرف عنه كيد هؤلاء النسوة ، إنه هو السميع العليم .

ولا نعرف على وجه التحديد كيف تم ذلك الصرف ، هل ليأسهن منه على الرغم من قربه منهن ، أم لبعده عنهن ؟ الله أعلم .

ولكن الذي لا شك فيه هو أن رحمة اللطيف الخبير بالعبد المبتلى يوسف ، كانت وراء ذلك الصرف ؛ قال تعالى: (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) .

ونود الوقوف عند « يدعونني » و « كيدهن » و « إليهن » هكذا بصورة الجمع في قوله تعالى على لسان يوسف : (قال رب السجن أحب إلي مما

يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) .

و « كيدهن » بصورة الجمع أيضاً في قوله تعالى: (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) فنقول :

إن يوسف عليه السلام لم يكن هدفاً لإغراء امرأة العزيز فقط ، بل كان هدفاً لإغراء نسوة المدينة اللاتي جاء على لسانهن قوله تعالى: (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين) لأن يوسف خرج عليهن بأمر امرأة العزيز (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم) .

لا ، ليس ذلك فحسب ، بل كان يوسف هدفاً لإغراء نساء أخريات أيضاً . فإذا كانت محنته مع امرأة العزيز قد ذاعت وهي التي كان لها من الظروف ما يمنعها أن تذيع ، فكيف لا تذيع محنته الثانية مع امرأة العزيز ونسوة المدينة . وبما أن الأولى كانت سبباً في إغراء جديد ليوسف ، فقياساً على ذلك ينبغي أن تكون الثانية سبباً في إغراء جديد له أيضاً .

كما نود الوقوف عند قول يوسف: (أصب إليهن) فإن هذه الحال التي يشير إليها يوسف إنما تكون من المرء وهو في ريعان الشباب .

وهو بهذا يشير إلى السّن التي كان فيها ، ونستطيع أن نفهم ضمناً حقيقة شيء من المعاناة التي كان يكابدها عليه السلام ، وقد قال المعري مشيراً إلى ما يمكن أن يصدر من المرء بين الخامسة عشرة والأربعين(١) :

وما بعد مَرِّ الخَمْسَ عَشْرَةَ من صِبا وما بعد مَرِّ الأربعين صَباءُ

فإذا أضفنا إلى ذلك أن رحمة الله تعالى اقتضت أن يدخل مع يوسف فتيان مماثلان له سنا ، استطعنا أن نعيّن سن يوسف في تلك الأثناء .

---

١ ـ المزوميات : اللزمية الأولى .

وأخيراً فإن يوسف عليه السلام يضرب لشباب المسلمين لله رب العالمين مثلا جديداً في التضحية إرضاءً لله تعالى ، والفرار بدينه أن يمسه أدنى سوء .

إن السجن بكل ما يعنيه في حقه من ظلم ووحشة وكآبة ، أحبّ إليه من أن يستمتع في ظل الخيانة بالنعيم في بيت العزيز ، لأن ذلك في حقيقته نعيم زائل مهما امتد أجله وطالت به الحياة .

يوسف في السجن :

وكيف كانت المحنة التالية ليوسف عليه السلام بالسجن ؟

قال تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) .

ونود الوقوف أولا عند حرف العطف « ثم » الذي ينطوي على فترة زمنية ذات طول نسبي قضاه يوسف عليه السلام في جهاده النفسي ومكابدته ابتغاء رضا الله عز وجل .

وهكذا يضرب لنا يوسف دائماً المثل الأعلى في الصبر ، الصبر على البلاء والصبر على النعماء .

كما نود الوقوف عند ضمير جماعة الغائبين في الجزئية السابقة نفسها « ثم بدا لهم » .

فليس الذي بدا له هو العزيز مثلا ، إنما الذين بدا لهم مجموعة يعنيها الأمر . ولعل العزيز واحد من هذه المجموعة التي كانت قادرة على أن تنفذ ما بدا لها من سجن يوسف .

ويفهم من هذا أن هذه المجموعة ممن بيدها الحل والعقد في البلد ، وأنها تمثل علية القوم والطبقة التي تسمى في ذلك المجتمع راقية .

إنا نقول بأن هذه المجموعة من علية القوم ، لأنا نعرف أن لامرأة العزيز يداً في هذه القضية عن طريق زوجها وهو من علية القوم .

وأخيراً فإن يوسف عليه السلام يضرب لشباب المسلمين لله رب العالمين مثلا جديداً في التضحية إرضاءً لله تعالى ، والفرار بدينه أن يمسه أدنى سوء .

إن السجن بكل ما يعنيه في حقه من ظلم ووحشة وكآبة ، أحبّ إليه من أن يستمتع في ظل الخيانة بالنعيم في بيت العزيز ، لأن ذلك في حقيقته نعيم زائل مهما امتد أجله وطالت به الحياة .

يوسف في السجن :

وكيف كانت المحنة التالية ليوسف عليه السلام بالسجن ؟

قال تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) .

ونود الوقوف أولا عند حرف العطف « ثم » الذي ينطوي على فترة زمنية ذات طول نسبي قضاه يوسف عليه السلام في جهاده النفسي ومكابدته ابتغاء رضا الله عز وجل .

وهكذا يضرب لنا يوسف دائماً المثل الأعلى في الصبر ، الصبر على البلاء والصبر على النعماء .

كما نود الوقوف عند ضمير جماعة الغائبين في الجزئية السابقة نفسها « ثم بدا لهم » .

فليس الذي بدا له هو العزيز مثلا ، إنما الذين بدا لهم مجموعة يعنيها الأمر . ولعل العزيز واحد من هذه المجموعة التي كانت قادرة على أن تنفذ ما بدا لها من سجن يوسف .

ويفهم من هذا أن هذه المجموعة ممن بيدها الحل والعقد في البلد ، وأنها تمثل علية القوم والطبقة التي تسمى في ذلك المجتمع راقية .

إنا نقول بأن هذه المجموعة من علية القوم ، لأنا نعرف أن لامرأة العزيز يداً في هذه القضية عن طريق زوجها وهو من علية القوم .

وإن عندهم من الوقاحة ما يجعلهم قادرين على التعبير في هذه الصيغة القوية من التعبير عن سجن الفتى الطاهر الطوية النقي السريرة .

والأدهى من ذلك أنهم قرنوا الفعل بالقول .

وإن يقينهم بأنهم يُقْدِمُون على أمر جلل ، وشعورَهم بوخز الضمير إذ لم يستطيعوا لانحلالهم هم أنفسهم أن يُسيطروا ، بالحقّ ، على نسائهم وهنّ في الباطل ليجعلهم يحددون الفترة التي سيقضيها الفتى في السجن تحديداً تقريبياً في القول الذي جاء على لسانهم ﴿حتى حين﴾ .

وإن لسان حالهم ليحدد هذا الحين بالوقت الذي يثبت لهم فيه أن الشائعات عنهم وعن نسائهم قد ماتت .

وهكذا نجد أنفسنا أمام صورة من صورمعالجة هؤلاء المسؤولين لقضية غير عويصة بالقياس إلى ما عداها من القضايا التي تصادف هذا المجتمع غير الديني .

والآن مع الآيات المتعلقة بيوسف عليه السلام في السجن .

قال تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهُم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي

السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ، وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ،فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

فإلى تأمل الآية الأولى ،قال تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ﴾ .

إنه على الرغم من كون يوسف بصدد محنة جديدة إلا أنا نفهم يقيناً من هذه الآية أن رحمة الله ترفرف حول يوسف في أكثر من جانب .

فمن رحمته تعالى أن يدخل السجن معه ، في اللحظة التي دخل فيها نفسها فتيان ، رِجْلاً برِجْل .

والمعروف أن المرء أكثرُ إلفاً لمن كان في مِثلِ سِنّه .

هذا صحيح بالنسبة للصغار والكبار ، وكذلك بالنسبة للفتيان بطبيعة الحال.

وقد كان في دخول فتى واحد السجن مع يوسف سَلْوَةٌ له وعزاء . فكيف إذا كان هناك اثنان . لا شك أن ذلك مما يخفف عنه شيئاً من وطأة الألم الذي انتابه للظلم الذي حل به .

وإن رحمته تعالى لا تقف عند هذا الحد ، ويتضح ذلك تماماً حينما نعرف أن واحداً من هذين الفتيين سَبَبٌ في خروج يوسف من السجن .

وصدق تعالى إذ يقول في كتابه العزيز : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

ونستطيع من القول الذي جاء على لسان الفتيين في السجن أن نتبين نضجهما العقلي ورجاحة تفكيرهما وذلك من صيغة الزمن المضارع التي جاء فيها تعبيرهما وليس الماضي ،على الرَّغم من أن الحديث يتعلق بما حدث في الماضي .

قال تعالى :﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ،نبئنا بتأويله ،إنا نراك من المحسنين ﴾ .

لقد كان بالإمكان أن تجيء صيغ الأفعال المضارعة الستة في صيغة الماضي ، ولكننا بصدد شخصين يتمثّلان الرُّؤيا ويهمّهما ما تؤول إليه ، ولهما رأيهما الشخصي في يوسف .

فمع أن هذا هو رأيهما فيه منذ اللحظة الأولى التي قُدر لهما فيها الاجتماع به ، فإن هذا هو رأيهما فيه ، في الحاضر وفي المستقبل أيضاً .

ومن رحمته تعالى بالعبد الصابر المبتلى يوسف أن يرى كل من الفتيين المشركين رؤيا . ويطلب تعبيرها من يوسف الذي خصه الله تعالى برحمته فكان أعبر الناس للرؤيا .

ولو لم يكن يوسف معبراً للرؤى لما خطر على بال الساقي الذي نجا منهما حينما طلب الملك تعبير رؤياه . ولكن حينما تحقق تعبير يوسف لرؤيا الفتيين كان طبيعياً أن يتذكره الساقي حينما حلّت المناسبة .

وإن الشيء الذي يمكن الإشارة إليه ، هو أنه من الطبيعي أن يستغرق رأي الفتيين في يوسف فترة من الوقت حتى يتبلور في هذه الصورة .

كما أنه من الطبيعي أن يكون كل من الفتيين قد رأى رؤياه بعد قضائه في السجن فترة من الزمن معينة .

وكل ذلك معناه أن هذه الفترة الزمنية يجب أن تضاف إلى السنوات التي قضاها يوسف في السجن والتي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى عن يوسف: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذِكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) .

وبقيت مسألة مهمّة جداً بشأن هذه الآية ، هي الدرس العظيم الذي يلقيه علينا معشر المسلمين نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام . فإنه بتقواه وصبره كان المثل الأعلى لكل فرد في السجن ، فلم يكن الفتيان إلا رمزاً لسواهما.

وإن يوسف بخلقه العظيم وسلوكه المستقيم وتمسّكه بحبل الدين المتين ، كان قُدوة في السجن وإماماً .

إنه لنعم الدرس الذي يلقيه علينا نحن المسلمين يوسف عليه السلام من منبر القرآن الكريم .

وإنه لدرس نافع مفيد في كل زمان ومكان .

فقد أثبتت التجربة دائماً أن المسلم حينما يكون في غير بلاد الإسلام مطبقاً تعاليم دينه فإنه خير سفير وداعية للإسلام . لا فرق في ذلك بين كونه في بلاد متحضرة أو متخلفة ، فإن الإنسانية عطشى لغذاء الروح وماء الحياة ، وما أغزر هذا الماء وما أعذبه في الإسلام ! وما أغنى المسلمين به ! وما أفقرهم هُم وسواهم بدونه !

وإن التاريخ ليسجل بمداد من نور هذه المفخرة ، لأولئك النفر من المسلمين الذين ضربوا في الأرض طلباً للرزق ووصلوا إلى تلك الأصقاع النائية التي لم يصلها أساساً جندي واحد ، وكانوا بخلقهم العظيم بسبب تطبيقهم لتعاليم الإسلام الحنيف خير دعاة وخير هداة مهتدين .

وإنه لخليق بالمسلمين أن يتأسّوا في كل جيل بالسلف الصالح .

وإنه لنعم الدرس الذي يلقيه علينا يوسف عليه السلام ، السراج المنير في ليل ذلك الشرك الدامس .

وحينما يخصّ كل من الفتيين يوسف بتعبير الرؤيا ، فذلك شيء طبيعي جداً ، وإن ذلك يُعتبر مظهراً من مظاهر العِزّة ، في ليل الشرك الحالك ، ليوسف عليه السلام ، المسلم لله رب العالمين .

وليس بخاف أن يوسف لم يُعبّره الرؤيا للفتيين مباشرة ، والسبب في ذلك يكمن في أن مايعتبره الفتيان غاية ، وهو تعبير الرؤيا ، يعتبره يوسف عليه السلام وسيلة ، لأن غاية رُسل الله الدعوة لدين الله تعالى ونبذ الأرباب المتفرّقين .

وقد استطاع يوسف بتوفيق من الله تعالى ، أن يجمع في جوابه الغاية والوسيلة أحسن ما يكون الجمع . فلننتقل مع يوسف في جوابه خطوة خطوة .

إنا نتبين في الآيتين الأوليين تماسكاً مصدره أنهما تتعلقان بيوسف عليه السلام نفسه .

قال تعالى : ﴿قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلانبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما

ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾.

فلنتأمل أولا هذه الجزئية التي تمثل كتلة متماسكة ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ .

وأول ما يلاحظُ المتأمل هو أن العِلْمُ اللّدُنّيّ الذي يشير إليه يوسف عليه السلام يسير مع تأويل الرؤيا في اتجاه واحد .

إن تأويل الرؤيا إنباء عما تؤول إليه ، وإن الحديث عن الطعام قبل أن يأتي الفتيين إنباء عما يؤول إليه .

وهذا يعني أن يوسف وإن لم يجب الفتيين عن رؤياهما مباشرة فإن نقله لهما إلى شيء آخر ، في الاتجاه نفسه ، يعتبر نقلا هيّناً ليناً ليس مزعجاً لهما ولا مفاجئاً ، لأنهما لا يشعران مُطلقاً بأنه يتحدّث عن موضوع غريب عن طلبهما ، أو غريب الحدوث من يوسف نفسه ، وهو الذي نعتاه لتوهما بالقول على لسانهما : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ .

بل إن يوسف عليه السلام ، في حديثه عن الطعام الذي نقل الفتيين إلى الحديث عنه نقلا هيناً ليناً ، ليتعمد استعارة ما يمكن استعارته من معجمهما اللغوي .

فإذا كان قد جاء على لسانهما : ﴿نبئنا بتأويله﴾ فإنه يجيء على لسان يوسف ﴿ إلا نبأتكما بتأويله ﴾ .

ولا يخفى أن ذلك مسعف على إشعار الفتيين بأنّ الحديث في اتجاه طلبهما ، وأنّ طلبهما نفسه في طريقه للتّحقيق .

وإن المتأمل لهذا القول على لسان يوسف ليُكبّر أيما إكبار اللفتة الكريمة في هذه الجملة « ترزقانه » في القول على لسانه: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ﴾ .

لقد كان في إمكانه أن يستغني لو شاء عن هذه الجملة ، ولكن هذه اللفتة الكريمة منه تشد انتباه الفتيين إلى أن الطعام الذي يأتيهما إنما هو رزق من الله تعالى الواحد الأحد وليس من سواه .

وإن يوسف حينما يشير إلى العلم اللدني الذي خصه الله تعالى به لا يريد من ذلك شيئاً من كسب لشخصه .

وهذا واضح تمام الوضوح . إنما قصده الإشادة بمَنِّ الله وفضله عليه .

وإن هذه الجملة « ترزقانه » على لسانه ، لتهيّىء الفتيين لفهم قصد يوسف الذي يتدرج بالفتيين حتى يصل إلى دعوتهما صراحة إلى دين الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، ثم يعبّر لهما رؤياهما .

ومع أن إشادة يوسف بفضل الله تعالى عليه بجعله قادراً على إنباء الفتيين بتأويل الطعام قبل أن يأتيهما ، مهيئة للفهم بأن يوسف سيؤول رؤياهما ، لأن الاتجاه في الأمرين واحد ، إلا أننا نحس في أعماقنا بأن يوسف إنما يشيد بنعمة عظيمة جداً ، لا يمكن أن تقل بحال عن إنعامه تعالى عليه بجعله قادراً على تعبير الرؤى .

وفي إمكاننا أن نشير إلى السرّ في هذه العظمة فنقول :

إذا كان تعبير الرؤيا ينطلق من الرؤيا نفسها ، فإن فضل الله تعالى على يوسف يجعله قادراً على تعيين نوع الطعام الذي سيصل للفتيين في المستقبل ، دون أن تكون هناك قاعدة كقاعدة الرؤيا ينطلق منها تأويل يوسف للطعام ، وكان فضل الله عليه عظيماً .

والمتأمل لإشارة يوسف إلى قدرته على تأويل الطعام لينتهي ، كما سبق أن ألمحنا ، إلى أن هدفه من ذلك كسب قلبي الفتيين كي يستميلهما إلى دين الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له .

ويوسف يلقي علينا نحن المسلمين درساً في وجوب بذل كل المحاولات لاستمالة الناس إلى دين الله تعالى .

ومن الوسائل إلى ذلك إظهار نعمة العلم التي أنعم بها تعالى على عبده . ولا يدخل ذلك بحال من الأحوال في باب تزكية النفس المنهيّ عنه ، ما دام المرء يقصد من ذلك وجه الله تعالى ، إنما يدخل في باب شكر المنعم ، وإن يوسف عليه السلام ليلوح لنا عبداً شكوراً .

والمتأمل لهذا القول على لسان يوسف « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يتبين أنه بصدد صيغة الغاية في قوة التعبير ووضوح الدلالة ، في أنه عليه السلام عنده بفضل الله تعالى القدرة على القيام بهذا العمل ليس لمرة واحدة بل مرات ، لا بل في كلّ مناسبة .

وإنا لنتساءل : هل هذا العمل عادي أم أنه معجز ؟

والجواب معروف بطبيعة الحال ، وهو أننا بصدد عمل الغاية في الإعجاز ، فكيف به وهو يتكرّر في كل مناسبة ؟

وإنا لنتساءل أيضاً : أي فئة من البشر تستطيع القيام بعمل كهذا ؟ .
والجواب عن ذلك : إنّها النّبوّة وكَفَى .

والذي يلوح لنا والله أعلم ، هو أننا الآن أمام أوّل نص صريح بأن يوسف نَبيٌّ من أنبياء الله تعالى (لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) .

وهكذا يتضح أنه كلما اصطفى الله تعالى يوسف بالابتلاء ، رفع درجته. وكان جزاء ابتلائه بالسجن اصطفاءه بدرجة النبوة .

وإذا كنا تبينا اللفتة الكريمة والخلق العظيم في هذه الجملة على لسان يوسف « ترزقانه » فإنا نتبين ذلك أيضاً في إصرار يوسف على تضمين كلامه المثنى المخاطب ؛ فإن بالإمكان الاستغناء عنه بكل بساطة في كل مناسبة . ولكن هذا التضمين يشعر كلا من الفتيين بأنه موضع الاهتمام ومحل التقدير .

وهذا وسيلة من وسائله عليه الصلاة والسلام لاستمالة قلبي الفتيين فياله من درس بليغ نافع عظيم يلقيه يوسف عليه السلام على أمّة الإسلام .